أرض الفيروز و القمر وصندوق الذهب

ما إن وَطِئَتْ السيارة رمال سيناء بعد عبورى نفق الشهيد أحمد حمدى الواصل بين السويس وسيناء تحت مياه قناة السويس، حتى أحسست برعشة ملأت نفسى وجسدى، تأملت الشمس، وراحت عيناى تلتهم الصحارى الممتدة، وذاكرتى تلح على بالمكان والتاريخ، على هذه الأرض وطوال ستة آلاف عام سالت الدماء دفاعا و استبسالا هنا حارب أحمس الحيثيين باختراع عصره «العربة الحربية» .. وهذا الطريق هو أول طريق حربى عرفه العالم و الذى سمى «حورس» فرعه الشمالى بسيناء الشمالية، والجنوبى يمر بالنقب حتى جزيرة فرعون، والذى عرف فيما بعد بطريق الحج.. ومن هذا المر قطع عمرو بن العاص الرحلة من الجزيرة العربية ليعز الإسلام بمصر، وتعز مصر بالإسلام، ويجوب صلاح الدين صحراء سيناء مدافعا صلدا عن العروبة والإسلام، حيث قاعدته بوابة جنوب سيناء، من خلال قلعته بجزيرة فرعون جنوبى طابا بثمانية كيلو مترات .

وبعد سنوات الاحتلال، أعاد المصريون ما ضاع منهم، محققين مقولة «مصر تعرف أن الشمس فوق سيناء يطلعها البشر» !

لقد حقق الإنسان المصرى المقولة، وأعاد شمس سيناء إلى الوطن.

نبدأ الرحلة فى التاريخ والجغرافيا: لقد أطلقت تسميات كثيرة على جنوب سيناء، أرض القمر، أرض الفيروز، أرض الأديان، فى الوقت الذى أطلق عليها فى العصور الفرعونية اسم «توشويت» أى الأرض الجرداء، وفى عهد الدولة الأشورية «أرض مجان» الذى صرف إلى اسم «مدين» الذى عرفت به سيناء فى العصر العباسى، أما كلمة سيناء فقد اقتبست من لفظ «سين» ومعناه «القمر» ..!

وجنوب سيناء .. هو الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة التى تعتبر أول منطقة شهدت صناعة التعدين فى التاريخ، فمنذ أكثر من ستة آلاف عام، تم صهر النحاس، واستخراج الفيروز و الذهب من وادى النصب و وادى المغارة، ومنذ أكثر من خمسة آلاف عام، وضعت أول أبجدية عرفها العالم، حيث شهدت مغارات الفيروز ما سجله الفراعنة منذ زوسر وحتى سنوسرت من نقوش هيروغليفية وسينية .

وشهدت هذه المنطقة طوال التاريخ، صراعا محموما، وكانت البوابة من العرب إلى العرب عبر سيناء، لذلك كان من الطبيعى أن تتحصن لحماية الحدود الشرقية لمصر، حيث توجد قلعة طور سيناء التى بناها السلطان سليم الأول عام ١٥٣٠ و التى تبعد عن مدينة الطور بنحو خمسة كيلو مترات، ثم قلعة الجندى التى بنيت فى عصر صلاح الدين الأيوبى عام ١١٧٠ على بعد ستة كيلو مترات شرق مدينة رأس سدر، أما قلعة صلاح الدين التى بدأ فى تشييدها عام ١١٧٠ فوق جزيرة

فرعون بعد انتصاره على الصليبيــين، فتبرز أهميتها فى قيامها بدور حيــوى فى حماية خليــج العقبة و البحر الأحمــر و الجزيرة العربية من الوقوع فى أيدى الصليبيين .

كذلــك موقعها المنيع ضد «أرناط» الصليبى أمير حصن الكرنك الذى قام بتجهيز حملة للاســتيلاء على الجزيــرة للانطلاق منها إلى المدينة المنورة عام ١١٨٢، إلا إنه لم يتمكن من ذلك، وظلت صامدة أمام ضراوة الحصار المضروب عليها من السفن الصليبية ..

.. وقلعــة صــلاح الدين – وفقا لما ذكره د. أحمــد قدرى – من الآثار الشــامخة و الدالة على عمق الفكر العسكرى المصرى، علاوة على قيمتها الأثريــة و التاريخية و الإســلامية، لأنها لعبــت دور الحارس الأمين للشواطئ العربية فى مصر و الجزيرة العربية و فلسطين على حد سواء.

ويوجد فى هذه المنطقة معبد سرابيت الخادم بمدينة أبو زنيمة، وقد بنى «للإله حتحور» حامى حدود مصر الشــرقية منذ أربعة آلاف عام، ووادى المكتــب وبه كتابات تاريخية على جوانب جباله باللغة القبطية و اليونانية والعربيــة، ثم وادى المغارة وبه صخرات عليها نقوش باللغة الهيروغليفية، وهو مكان لتعدين الفيروز، وبه تمثال كبير أقامه الملك «سمرخت» آخر ملوك الأسرة الفرعونية الأولى، أما أهم الصخرات التى عثــر عليها فى هذا الوادى، فهى صخرة سمرخت التى تعتبر أكبر أثر للفراعنة فى سيناء، بل قيل إنها أقدم أثر من نوعه فى العالم .

وشبه جزيرة سيناء، جغرافيا تقع في أقصى الغرب من قارة آسيا، وتربط قارتي آسيا و أفريقيا برا، وبعد حفر قناة السويس زادت الأهمية الاستراتيجية لسيناء باعتبارها حلقة اتصال العالم برا وبحرا، علاوة على الخيرات الكامنة في جبالها ووديانها وسهولها وشواطئها، وتبلغ مساحتها بعد صدور القرار الجمهوري في عام ١٩٧٩ بتقسيمها إلى محافظتين شمال وجنوب، حيث يفصلهما الخط الوهمي الواصل من طابا شرقا إلى رأس مسلة غربا، حوالي ٣٠ ألف كيلو متر.

وهي شبه جزيرة مثلثة الشكل تقع بين خليجي السويس والعقبة ويغلب على طبيعتها الجبال التي تتوسطها، ويصل ارتفاعها إلى ٢٦٣٩ مترا وتتخلل هذه الجبال مجموعة من الوديان تهبط إلى الشرق والشمال والغرب، وقد وهبها الله جمالا طبيعيا فذا، فتجد ألوانها زاهية خاصة الأحمر والأصفر والأخضر و الأسود علاوة على أن أمطار السيول حفرت على الجبال رسوما يخيل للمشاهد أن هناك فنانا عظيما نحتها، أو رسمها وخلق منها تشكيلات فنية مدهشة .

كما أن سلاسل الجبال تعلو وتنخفض وتعطي شكلها العام «بانوراما» بألوان متعددة وفقا لسقوط الشمس عليها، خاصة عندما تنحدر، فتعطي ما يسمى «بالسلويت» أبعادا فنية لا تنسى، أما المنطقة الوسطى، وبها هضبة «العجمة» تليها شمالا هضبة «التيه» أي إن تضاريس جنوب سيناء جبلية ساحلية إذ يبلغ طول شواطئها ٦٠٠ كم، حيث يوجد سهل ضيق

على خليج العقبة، وسهل ساحلى متسع نسبيا على خليج السويس، ويمتاز هذا الشاطئ برمال ناعمة ساحرة، وبمياه زرقاء رائعة.

وإذا تتبعنا الطريق خطوة خطوة، نبدأ من منطقة جنوب عيون موسى، فرأس مسلة ثم رأس سدر «المدينة البترولية القديمة» ثم منطقة العيون الحارة بجبل فرعون وميناء رأس ملعب حيث يصدر الجبس، فواحة غرندل ثم مدينة أبو زنيمة حيث المنطقة الصناعية الجديدة للفيرو منجنيز ثم مدينة أبو رديس يليها منطقة بلاعيم ثم سهل القاع، وتقاطع وادى فيران المتجه شرقا إلى المنطقة الجبلية وسانت كاترين، أما المتجه إلى مدينة الطور عاصمة المحافظة والتى ارتبط اسمها «برحلة المحمل والحج إلى بيت الله الحرام» كما ارتبطت بالمحجر الصحى ثم معتقل الطور.

وكانت الطور منذ عصر المماليك ميناء تجاريا هاما، وموقعا استراتيجيا وعسكريا كبيرا، وقد استخدم هذا الطريق للحج منذ سافرت «شجر الدر» عام ١٢٤٨ م مع قافلة الحجاج إلى مكة عن طريق سيناء – فيتجه جنوبا إلى سهل القاع لمسافة ٦٠كم، ثم ٩٠كم للمتجه إلى شرم الشيخ، أما ساحل خليج العقبة فيبدأ من محمية رأس محمد حيث شهرتها العالمية فى دنيا الغوص تحت الماء، ثم خليج نعمة وهو قطعة فنية بديعة. ثم مدينة ذهب، وهى بحق مدينة ذهبية برمالها، فعند شروق الشمس وغروبها، ترسل الشمس أشعتها الذهبية عبر السماء الصافية، وتمر وتتلاقى مع ذرات الرمال الناعمة التى تراقصها

الريـــاح، وتداعبهـــا ذرات بخار الماء الصاعد من ميـــاه الخليج، فتكون بانوراما شكلتها هذه الرؤية الذهبية.

ونواصل المسير إلى نويبع فجزيرة فرعون.

ونستقر فى طابا !

وطابا.. دخلت مفردات الوطنية المصرية من أوســع أبوابها، كانت النقطــة الأخيرة التـــى تم تحريرها، وقــد انتابنى شــعور متناقض، ومتضارب «هو» بين الشعور الوطنى الفياض، ومشاعر الغضب للتواجد الإســرائيلى المشــبوه! لقد خاضت مصر معركة خاصة بطابا اســتمرت ســت ســنوات وخمســة شــهور وأربعة أيام، منها ثلاث سنوات فى التحكيم الدولى.. حيث كانت معركة بحق، إذ قدمت مصر مذكرات إلى محكمة العدل الدولية بلغت ١٥٠٠ صفحة وستة مجلدات من الملاحق، ومائة ســاعة من المرافعات الشــفهية، وكان الجميع، رجال السياســة والقانون والجغرافيا والتاريخ والاســتراتيجية والمســاحة العســكرية والحدود فى سباق رهيب مع الزمن من أجل إعادة طابا عزيزة وغالية.

وطابـــا.. هى فصــل هام فى كتـــاب الحرب بين مصر وإســـرائيل، وذلك يطرح تســاؤلا: لماذا احتفظت إســـرائيل بطابـــا، ذلك أنها تمثل أبعادا هامة، سياسية واســـتراتيجية وعسكرية، فهى تمكن إسرائيل مــن وجود حدود لها مع مصر والأردن والســعودية، حيث تتحكم فى عدة طرق إلى الســويس وشرم الشــيخ والعقبة، ووجودها – أى طابا – مع إســرائيل يجعلها من دول حوض البحر الأحمر الذى يمثل – فى الحقيقــة – بحــيرة عربيــة خالصة.. وعــادت طابــا إلى موقعها من

الوطن الأم، لا سـيما وأن اسمها الأصلـي كان «رأس المصرى» كما يقول د. يوسف أبو الحجاج.

والثابـت تاريخيـا أن قدمـاء المصريين أطلقوا على بدو سـيناء اسـم «حيرسـاينو» أى «سادة الرمال».. أما فى العصر المسيحى فقد عرف هؤلاء السكان باسم «أعراب بنى إسماعيل» ..ويرجع أصول بدو سيناء إلى العنصر العربى الذى أطلق على جميع الشـعوب الناطقة باللغات السـامية فى كل المنطقة العربية.. إذ كانت تلك المنطقة متصلة ومتشـابكة مع المجتمعات المحيطـة بها، وتعتبر قبائل «يلى» من أقدم القبائل العربية الموجودة فى شبه جزيرة سيناء، وإن كانت من أقلها عددا فى الوقت الحاضر وقد هاجر من الجزيرة العربية فى عصر الفتح الإسلامى نحو ٧٥ قبيلة، استقرت فى مصر وسيناء، ومنها قبائل «بنو واصل والمواطرة، والبدارة» التى استقرت فى شبه الجزيرة، وذابت فى سكان البلاد الأصليين من «المونيتو» وكونت الأسـاس الاجتماعى للمجتمع البدوى الذى يتكون فى جنوب سـيناء من ١٣ قبيلة، تشكل الحياة الاجتماعية داخل المجتمع المتناثر.

وأهم القبائل الحالية فى سـيناء الجنوبية «الصوالحة» الذين يرجع نسـبهم إلى «حرب» من قبائل الجزيرة العربية، وهم يمتلكون الآن قلب بـلاد الطـور، أما قبيلة «مزينـة» فتنزل فى المنطقة الواقعة إلى الشـرق من سـانت كاترين، وتمتد على طول خليج العقبة، أما قبائل العليقات، فينسـبون أنفسـهم إلى قبيلة قديمة من بنى عقبة، وإن كان البعض يرى أن هـذه التسـمية محرفة، وأنهم فـى الحقيقة «عقيـلات» لا «عليقات»

نسبة إلى عقيل بن أبى طالب، وهم ينزلون فى مناطق غنية بالماء والنبات، أما قبيلة «الجبالية» فهم ينتسبون إلى المنطقة الجبلية المرتفعة التى يسكنونها فى منطقة جبل موسى وسانت كاترين، وهم يختلفون اختلافا ملموسا عن سائر بدو سيناء فى ملامحهم وسماتهم وطبائعهم.

وبدو سيناء ليس لهم قانون مكتوب يحكم التعاملات بين الناس، لكنَّ تراثا طويلا من المعاملات، وضع قواعد مضبوطة للتعامل يحترمها الجميع، ويقول «نعوم شقير» صاحب أضخم وأقدم كتاب عن سيناء اسمه «تاريخ سيناء» يقع فى ألف صفحة، ولا يباع إلا فى مكتبة «سانت كاترين» بدو سيناء كسائر البدو، يعنون بحفظ أنسابهم، بل ويبالغون فى استقصائها حتى يردوها إلى الآباء الأقدمين، كما أن كل قبيلة مرتبطة بسائر القبائل بحلف أو «قلد» ولها حسيب حافظ لعهودها مع القبائل، ويعرف بالعقيد، أو بنقال الأقلاد، أو نقال العلوم، أما «الحلف» فهو المحالفة بعينها، وهو معاهدة دفاعية هجومية، وأما «القلد» فهو معاهدة سلمية لمنع الحرب أو الغزو وحفظ السلام بين القبائل، ويشترط فيما يعقد عنده الحلف أو القلد أن يكون مشهورًا مذكورا وسيع المراح راعى مال وعيال، ويدعى راعى البيت، وبيته بيت العمارة، وهو الشاهد الحكم بين المتعاهدين ويورث علمه للأرشد من أولاده!

واستنادا إلى العرف الذى استقر بين القبائل، فأضحى أقوى من القانون، يفصل فى الخلافات بين البدو «قضاة» منهم ينتخبون

من كبار المشايخ، ويتصفون بالإلمام التام بالعرف القبلى - كما يقول الباحث محمد نور الدين - لذلك قسمت شرائع العرف كالتالى :

القاضى الذى يختص بالجرائم التى ينكرها من تنسب إليه لعدم كفاية الأدلة، يقوم باختيار المتهم عن طريقين، أولهما: اختباره بالنار، وذلك بأن يتولى إحضار طاسة نحاس يحميها على النار إلى أن يحمر لونها، ويمسحها ثلاث مرات، ثم يأمر المتهم بأن يغسل لسانه بالماء، ثم يناوله الطاسة المحماه «ليلحسها» بلسانه، ثم يغسله، فإن ظهر على لسانه حرق «فقفقة» حكم المبشع بالدعوى لخصمه، وقيل فى تبرير ذلك، أن المتهم إذا كان ارتكب الجريمة، فان ريقه يجف من الخوف، وبالتالى تؤثر النار على لسانه.

أما الاختبار الثانى فيكون بالماء، وذلك بأن يحضر القاضى إبريقا من النحاس، ويقف الحاضرون ومن بينهم المتهم فى دائرة، ثم يقوم القاضى «بالتعزيم» على الإبريق الذى يتحرك من تلقاء نفسه، فإذا وقف أمام المتهم، ثبتت عليه التهمة، وإن وقف أمام المبشع «أى القاضى» كان بريئا.!

أما القاضى المختص بالعقوبات والجروح، فهو يصور الجزاء على قدر كل جرح، وأكثر القصاصين من قبيلتى المزينة والقرارشة، وهناك قضاة متخصصون بأمور الإبل، وشريعة الإبل صارمة جدا لأنها الأساس الاقتصادى للقبيلة، وهناك قضاة متخصصون فى النساء، ويحكمون فى المسائل المتعلقة بهن مثل هتك العرض والمهر والطلاق .

وإذا كان الرجـال في المجتمع البدوى هم المسـيطرين، لكن المرأة البدويـة لهـا دور هام في الحياة الأسـرية، فهى التـى تصنع الخيام وتغزل الأغطية وتقوم بجلب الماء وجمع الحطب وطحن الحبوب، علاوة على مهارتها الخاصة في التطريز البدوى المشـهور بوحداته الجميلة، ومنها «دقن الباشا».

ومـن تقاليد البدو أن المرأة تحلف أو تقسـم برأس أبيها، لا برأس زوجهـا، وذراع ابنها، وهذا يدل على مدى اعتـزاز البدوية بأهلها، وتمسـكها بإعلاء شأنها، بالرغم من زواجها، أما قسمها بذراع ابنها، فهذا يعنى رغبتها في تنشئته بحيث يصير قويا شجاعا.!

ويفضل بدو سـيناء الـزواج المبكر، وإن كانـوا لا يميلون إلى تعدد الزوجات إلا في أضيق الحدود مثل الرغبة في الإنجاب، وعادة يتخير الشـاب واحدة من بنات عمـه، ولا يؤخذ برأى البنت إذا كانت «بكرا» .. أما إذا كانت «ثيبا» فيؤخذ رأيها، ولابد من رضاها، وإذا رضى والد البنت بالخاطب ناوله غصنا أخضر وقال له: «هذه فسـيلة فلانة بسنة الله ورسـوله.. وإثمها وخطيتها في رقبتـك من الجوع والعرى ومن أى شـئ نفسـها فيه وأنت تقدر عليه» .. وعندما يتناول الخاطب الفسيلة يقول لوالد الفتاة: «قبلتها زوجة لى على سنة الله ورسوله» .

ويتم إعداد خيمة للعريس تدعى «البرزة» ليزف فيها على عروسـه، وتدخل مع العروس أقرب قريباتها، أما سـائر الناس فيجلسـون خارج البرزة، ويقوم أهل العريس بنحر الذبائح من الغنم لأهل الفرح عند باب

البرزة، ويعدون الأطعمة المحببة، ويمتد السامر حتى منتصف الليل، وأثناء الاحتفال تخرج الناس من البرزة، ليدخل العريس، ويمكث فيها مع عروسه ثلاثة أيام، والعادة المدهشة، هى فرار العروس قبل انتهاء الأيام الثلاثة من البرزة، فيطاردها العريس، وذلك لكى يعيشا فى الخلاء بعيدا عن مخيم القوم، حتى يتم إعداد الخيمة الجديدة لهما.. !

..

وسيناء.. تلك «العقدة» التى «تلحم» أفريقيا بأسيا كما يقول العاشق المصرى جمال حمدان، ليست مجرد صندوق من الرمال، إنما هى صندوق من الذهب، فقد كانت منذ الفراعنة منجماً للذهب والمعادن النفيسة، وهى الآن بئر بترولها، كما أنه من المهم أن ندرك أن سيناء ليست مجرد فراغ أو حتى عازل، إنها عمق جغرافى وإنذار مبكر، يمكن أن نشترى فيه الزمان بالمكان، إنها ككل خط الدفاع الأخير عن مصر «الدلتا والوادى» . !

وإذا كان العلم الذى يرفرف على تبة طابا دليل عودة الشمس والدفء لسيناء مصر، فهل عودة الشمس والدفء والوصال بين سيناء والوطن الأم يكفى؟ وهل هذه العودة تصبح مجرد مادة للأغانى وكتابة الأشعار؟

فى رد عملى يقول عمنا جمال حمدان – الذى كان يرسم خطط المستقبل باعتباره واحدا من سدنة هذا الوطن – التعمير، ويضيف.. التعمير البشرى، والتعمير العمرانى، فالفراغ وحده هو الذى يشجع «الجشع»

ويدعــو الأطماع الحاقدة إلى ملء الفراغ، وهناك إجماع على ضرورة نقل الكثافة الســكانية المكتظة فى الوادى إلى أطراف الدولة وحدودها، بما فيها وعلى رأسها سيناء. إن التعمير هو التمصير. ا

ويرى عالم الجغرافيا حمدان أن ســيناء تحمل فى طياتها إمكانات كبيرة للاســتصلاح والتوســع الزراعى، كما أن قضية تمديد مياه النيل إلى شــبه جزيرة سيناء ليســت بدعة «فقد كان النيل يصب قديما غرب ســيناء، كما أنه مــن الوجهــة العمرانية البحتة لم يعــد هناك مبرر لأن تظــل قناة الســويس أحادية الضفــة. بل ينبغى أن تــزدوج تماما بالعمران الكثيف على كلتا الضفتين، ومن الضرورى أن تمتزج مشاريع التعمــير بمشــاريع الدفــاع معا، وفى تخطيــط تعمير ســيناء القوى، تضع التحدى الحضارى على مستوى التحدى العسكرى.

obeikandl.com